﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثَۢا ٤٢﴾ [النساء: 40 - 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

كُلُّ ما سَبَقَ يُعَدُّ تَوْطِئَةً لِذِكْرِ الجَزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعالى بِعِبادَتِهِ وبِالإِحْسانِ إلى الوالدَيْنِ ومَن ذُكِر مَعَهُم - ثمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ بذمِّ البُخلِ والأَوصافِ المَذْكورَةِ مَعَهُ، ووَبَّخَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، ولم يُنفِقْ في طاعةِ اللهِ، وأَراهُمْ تَفْريطَهُمْ مَعَ سُهولَةِ أَخْذِهِمْ بالحَيْطَةِ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ شاؤوا - كان هذا كُلُّهُ تَوْطِئَةً لِذِكرِ الجَزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فَأخبَرَ تعالى بِصِفَةِ عَدْلِه، وأَنَّه ﷻ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ القَليلِ، بَلْهَ الظُّلْمِ الشَّديدِ، فَلا يَظْلِمُ أَدْنى شَيْءٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِصِفَةِ الإِحْسانِ[1]، فَقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾.

التَّرْغيبُ في الإيمانِ والطَّاعَةِ بَعْدَ الوَعيدِ على الكُفْرِ والرِّياءِ

وثَمَّةَ مُناسَبَةٌ أُخْرى، وهيَ أَنَّهُ تَعالى بَعْدَ أَنْ وصَفَ حالَهُم - وأَقامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وأَراهُمْ تَفْريطَهُمْ مَعَ سُهولَةِ أَخْذِهِمْ بالحَيْطَةِ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ شاؤوا - بَيَّنَ أَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ القَليلِ، بَلْهَ الظُّلْمِ الشَّديدِ، فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّه لا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنَ العامِلينَ بِتِلْكَ الوَصايا، قَليلًا أَوْ كَثيرًا، بَلْ يوفِّيهِ حَقَّهُ بِالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ[2]، فَماذا على مَنْ آمَنَ بِهِ، وهو بِهَذِهِ الصِّفَةِ العُظْمى[3]، فَفي هَذِهِ الآيةِ تَرْغيبٌ في الإيمانِ والطَّاعَةِ بَعْدَ الوَعيدِ على الكُفْرِ والرِّياءِ[4].

(1) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/642، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/55.
(2) مُحَمَّد رَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/85.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/281.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/80.

فضلًا عن أَنَّ مُناسَبَةَ ذِكْرِ الْإيمانِ بِاليَوْمِ الْآخِرِ وإتْباعَهُ بِإظْهارِ الْعَدْلِ الْإلَهيِّ الَّذي يَتَجَلَّى فيهِ؛ كانَ سَبَبًا لِلسُّؤالِ عَنْ حالِ أَهْلِ الْكُفْرِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَجاءَ البيان[1]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، أي: زِنة ذَرَّة، يُقال: هذا على مِثقال هذا، أي: على وزْن هذا[2]، والمثقال: ما يوزن به[3]، وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة[4]، وهوَ انْجِذابُ الشَّيْءِ إلى أَسْفَلَ بِسُرْعَةٍ تُناسِبُ وزْنَهُ[5]، والذَّرَّة: النَّمْلَةُ الصَّغيرَةُ[6]، أَوْ بَيْضُها، فالذَّرَّةُ "تُطْلَقُ عَلَى بَيْضَةِ النَّمْلَةِ، وعَلَى ما يَتَطايَرُ مِنَ التُّرابِ عِنْدَ النَّفْخِ، وهَذا أَحْقَرُ ما يُقَدَّرُ بِهِ"[7]، وتُطْلَقُ كَذلِكَ على ما لا وزْنَ لَهُ يُذكَرُ، وما يَرفَعُه الرِّيحُ من التُّرابِ، ولِلْمُنْبَثِّ في الهَواءِ مِنَ الهَباءِ في شُعاعِ الشَّمْسِ مِنْ كوَّةٍ ونَحْوِها[8].

2) ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عِنْدِه[9]، أَوْ لَدَيْهِ[10]، فَلَدُنْ: ظَرْفٌ، بِمَعْنَى: عِنْدَ[11]، وهوَ يَدُلُّ على ابْتِداءِ غايَةِ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ أَوْ مَنْزِلَةٍ ومَكانَةٍ، وهوَ أَبْلَغُ مِنْ (عِنْدَ) و(أَخَصُّ)، و(لَدُنْ) كَذلِكَ أَقْوى مِنْ (عِنْدَ) في الدَّلالَةِ على القُرْبِ[12].

3) ﴿بِشَهِيدٍ﴾، أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَر[13]، وأصلُ شهد: حضورٌ، وعِلم، وإعلام[14]، ومعناه هنا: الشَّاهد الصَّادق الَّذي يشهد بالأمر العظيمِ على بيِّنةٍ منه.

---

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/283.
(2) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ ص: 127.
(3) السَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ثقل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثَقَلَ).
(5) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّلُ: (ثقل).
(6) السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 455.
(7) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/55.
(8) ابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تَفْسِيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، أساس البلاغة، الزّمَخْشري، تح: محمد عيون السود: 1/311، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ثقل).
(9) تَهْذيبُ اللُّغَة: (لدن).
(10) الكفوي، الكُلّياتُ، ص: 801.
(11) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (لدن).
(12) الخَليلُ، العَيْن: (الدّال واللّام والنّون)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لدن)، والرّاغِبُ، المُفْردات: (لدن).
(13) الرّاغِبُ، المُفْردات: (شهد)، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (شهد).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

4) ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ﴾: يَسْتَوونَ مع الأَرْضِ، فَيكونونَ معها سَواء[1]، وأَصْلُ (سوي): استِقامةٌ واعْتدالٌ بين شيئين[2]، والمعنى هنا: لو يُدخَلون في الأرضِ، فَتَلْتئم عَلَيْهِمْ، [3] حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِنْ تمامِ عَدْلِ اللهِ مَعَ عِبادِهِ أَنَّهُ لا يَظْلِمُهُمْ في ذَرَّةِ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَعَلوها، وأَلَّا يُعَذِّبَهُمْ حتَّى يُشْهِدَ عَلَيْهِمْ أَشْرَفَ خَلْقِهِ

إنَّ اللهَ تعالى عَدْلٌ لا يُنقِصُ أَحدًا مِنْ جَزاءِ عَمَلِهِ مِقْدارَ أنملة صغيرة، ولا يَزيدُ في سَيِّئاتهم شيئًا، وإنْ تَكُنْ زِنَةُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً؛ يُكَثِّرُها لِصاحِبِها فَضْلًا منه، ويُعْطِهِ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ المُضاعَفَةِ ثَوابًا عَظيمًا.

فَكَيْفَ يَكونُ حال النَّاسِ يَوْمَ القيامَةِ حينَ نَجيءُ بِكُلِّ نبيٍّ شَهيدًا على قَوْمِهِ بما عَمِلوا، ونَجيءُ بك - أَيُّها الرَّسولُ ﷺ - على أُمَّتِكَ شاهدًا أَنَّكَ بَلَّغْتهم رِسالَةَ ربِّكَ، يَوْمَ يَكونُ ذَلِكَ، يَتَمَنَّى الَّذينَ كَفَروا باللهِ، وعَصَوا رَسولَهُ، لَوْ يَجْعَلُهُمُ اللهُ والأَرْضَ سَواءً، فَيَصيرونَ تُرابًا، حَتَّى لا يبْعَثوا، وهُمْ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُخْفوا عَنِ اللهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّ اللهَ يَخْتِمُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَلا تَنْطِقُ، ويَأْذَنُ لِجَوارِحِهِمْ، فَتَشْهَد عَلَيْهِمْ بِعَمَلِهِمْ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاِسْتِئْنافِ مَعَ التَّأْكِيدِ:

كَمالُ العَدْلِ الإلهيِّ مَعَ العِبادِ تَفَضُّلُهُ على المُحْسِنينَ مِنْهُمْ

في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ اسْتِئْنافٌ، ذُكِرَ فيه المُسْنَدُ إلَيْهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُؤَكَّدًا بإنَّ واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ مَعَ تَقْديمِهِ، وذَلِكَ أَقْوَى وأَبْلَغُ مِنْ أَنْ يُقالَ: لا يَظْلِمُ اللهُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وكُلُّ ذَلِكَ يُنْبِئُ بِأَنَّ اللهَ وحْدَهُ هو الَّذي لا يَقَعُ مِنْهُ جِنْسُ الظُّلْمِ، ولا أَقَلُّ القَليلِ مِنْهُ سُبْحانَهُ جَلَّ شَأْنُهُ.

(1) ابْنُ سيده، المُخَصَّصُ: 03/317، والنيسابوري، إيجازُ البَيانِ عَنْ مَعاني القُرْآن: 1/240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 2/934.
(4) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127.
(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 115، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 85.

وفي هذا التَّركيبِ تَعْريضٌ بِوَعيدٍ مَحْذوفٍ هوَ مِنْ جِنْسِ العِقابِ، وأَنَّهُ في حَقِّهِمْ عَدْلٌ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوهُ بِكُفْرِهِمْ، وقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ المُقَدَّرِ -أَيْضًا- مُقابَلَتُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾؛ ولَمَّا كانَ المَنْفيُّ الظُّلْمَ عَلَى أَنَّ: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ تَقْديرٌ لِأَقَلِّ ظُلْمٍ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المُرادَ أَنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُ المُسيءَ بِأَكْثَرَ مِنْ جَزاءِ سَيِّئَتِهِ[1].

في جملة المطلع تَعْريضٌ بالوَعيدِ لِمُخالِفِ الأَوامِرِ والنَّواهي

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمِثْقالِ بَدَلَ المِقْدارِ:

استعملَ لفظَ المثقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ "تنبيهًا أنَّ ذلك يعظم جزاؤه وإن صَغُر قدره"[2]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾، أي: وإنْ يَكُنْ مِثْقالُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً[3]، ولَمْ يُعَبِّرْ سُبْحانَهُ بِالمِقْدارِ ونَحْوِهِ، بَلْ عَبَّرَ بِالمِثْقالِ لِلْإِشارَةِ إلى ما يُفْهَمُ مِنْهُ مِنَ الثِّقَلِ الَّذي يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْكَثْرَةِ والعِظَمِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ [القارِعَة: 6] فَهو، وإنْ كانَ حَقيرًا؛ فَهوَ بِاعْتِبارِ جُزْئِهِ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ[4].

في لفظ المثقال بَيانٌ لكَمالِ كَرَمِ اللهِ عَلى عِبادِهِ وسَعَةِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ

وَيَدُلُّ عَلَى هَذا التَّفَضُّلِ والعِنايَةِ ضَميرُ الْغائِبِ في: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾، وكَذا ﴿لَّدُنْهُ﴾، فالضَّميرُ في ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ يُؤَكِّدُ مَضْمونَ مُضاعَفَةِ الْحَسَنَةِ، وهوَ أَمْرٌ ثابِتٌ عَنْهُ سُبْحانَهُ بِالنُّصوصِ الشَّرْعيَّةِ مِنَ الْكِتابِ والسُّنَّةِ، وأَمَّا الضَّميرُ في ﴿لَّدُنْهُ﴾، أَيْ: مِنْ عِنْدِهِ سُبْحانَهُ؛ فَيُؤَكِّد تَفَضُّلَهُ وعِنايَتَهُ سُبْحانَهُ بِعِبادِهِ الْمُؤْمِنينَ؛ وإنْ قَلَّ عَمَلُهُمْ، أَوْ ذَهَبَ جُلُّهُ مُقابِلَ سَيِّئاتِهِمْ، فالمَسْأَلَةُ مَحْضُ تَفَضُّلٍ مِنَ اللهِ ابْتِداءً وانْتِهاءً[5].

الإضْمارُ لِبيانِ فَضْلِ اللهِ على عِبادِهِ المُؤمنينَ وعِنايَتِهِ بِهِمْ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/55.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1241.
(3) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/75.
(4) شِهابُ الدّين، الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/31.
(5) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/65.

لَطيفَةُ التَّصْويرِ البَيانيِّ في التَّشْبيهِ التَّمْثيليِّ(1):

المُبالَغَةُ في نفي الظُّلْمِ عَنِ اللهِ والحَثُّ على طاعَتِهِ واجْتنابِ مَعْصيَتِهِ

صورَةُ التَّشْبيهِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾، أَيْ: إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ ظُلْمًا كَمِقْدارِ ذَرَّةٍ، "وضرب تعالى الذَّرَّة مثلًا للشَّيء الصَّغير؛ تقريبًا للمخاطب""[2]، ومُبالَغَةً في نَفْيِ الظُّلْمِ عَنْهُ سُبْحانَهُ مَهْما تَضاءَلَ وزْنُهُ وقَلَّ، وقَدْ أَثْبَتَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ بِتَمْثيلِها بِشَيْءٍ حِسِّيٍّ يَعْرِفُهُ المُخاطَبونَ بِالقُرْآنِ، وهوَ الذَّرُّ المُتناهي في الصِّغَرِ.

والظُّلْمُ - وهوَ المُشَبَّهُ - شَيْءٌ مَعْنَويٌّ لا يُقاسُ بِالمَوازينِ في دُنْيا المُخاطَبينَ بِالقُرْآنِ الكَريمِ، ولَكِنَّ الجَمْعَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الذَّرَّةِ - وهيَ أَقَلُّ شَيْءٍ مِمَّا يَدْخُلُ في وهْمِ البَشَرِ - أَخْرَجَ المَعْنَى العَقْليَّ بِصورَةٍ حِسِّيَّةٍ، والجامِعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الأَثَرُ النَّفْسيُّ الَّذي يَتْرُكُهُ نَقْصُ الوَزْنِ - وإنْ قَلَّ - لأَنَّ النَّفْسَ جُبِلَتْ عَلَى الشُّحِّ في حُقوقِها، وأَيُّ نَقْصٍ في تِلْكَ الحُقوقِ يُؤْلِمُها، ويَجْعَلُها في اضْطِرابٍ، وفي ذَلِكَ حَثٌّ عَلَى الإيمانِ والإنْفاقِ، بَلْ إرْشادٌ إلَى أَنَّ كُلَّ ما أُمِرَ بِهِ مِمَّا يَنْبَغي أَنْ يُفْعَلَ، وكُلَّ ما نُهيَ عَنْهُ مِمَّا يَنْبَغي أَنْ يُجْتَنَبَ[3].

براعة الإيجاز بالحذف في ﴿تَكُ﴾:

لا يغفل قاضي السَّموات والأرض عن أجور الأعمال وإن تناهت في صغرها

حُذِفَتِ النُّونُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ "من غير قياسٍ؛ تشبيهًا بحروف العلَّة وتخفيفًا لكثرة الاستعمال"[4]، وحذف النُّون مناسبٌ لخفَّة مثقال الذَّرَّة، وإشعارٌ بمدى تناهيها في الصِّغَرِ، فإنَّها لا تغيب عن قاضي السَّموات والأرض، ولِيناسب إفراد الحسنة دلالة على قلَّتها.

(1) التَّشْبيهُ التَّمْثيليُّ: ما كانَ وجْهُ الشَّبهِ فيه صورَةً عَقْليَّةً تَحْتاجُ إلى تَأَوُّلٍ، سَواءٌ أكان مُفْردًا أم مُرَكَّبًا، أَسْرارُ البلاغَةِ، عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانيُّ، تح: مَحْمود محمد شاكر، ص: 65.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1241.

(3) شِهابُ الدّينِ، الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/32.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177.

دَلالَةُ تَأْنيثِ الفِعْلِ ﴿تَكُ﴾ والضَّميرِ في ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾:

في التَّأنيث بيانٌ لضَعْفِ الإنسان ونَقْصِه، وأنَّ مضاعفةَ الأجْرِ بفضل الله

فالأَصْلُ في الضَّميرِ أَنْ يُذَكَّرَ؛ لِأَنَّ التَّذْكيرَ هوَ الأَصْلُ، ولِأَنَّهُ يَعودُ في الآيةِ على مُذَكَّرٍ، وهوَ لَفْظُ ﴿مِثْقَالَ﴾، وإنَّما أُنِّثَ الضَّميرُ لِتَأْنيثِ الخَبَرِ ﴿حَسَنَةً﴾، أَوْ لِإضافَةِ المِثقالِ إلى مُؤَنَّثٍ ﴿ذَرَّةٍ﴾[1]، وإنَّما آثَرَ التَّأْنيثَ هُنا مَعَ جَوازِ التَّذْكيرِ؛ لِأَنَّ التَّعْبيرَ بِالتَّأْنيثِ فيه دَلالَةٌ على الضَّعْفِ والنَّقْصِ، والتَّعْبيرُ بالتَّذْكيرِ فيهِ دَلالَةٌ على القوَّةِ والكَمالِ، وأنَّ الإثابة، ومضاعفة الأجْرِ بفضل اللّٰه، ومَنِّهِ.

نكتة التَّعبير عن مضاعفة الأجر بالمضارع:

عطاء الله لا ينفد، وثوابه لا حدَّ له زمانًا، ومقدارًا

عبَّر عن مضاعفة الحسنات بالمضارع في قوله: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾؛ ليؤدِّي معنى أنَّه: "يضاعف ثوابها؛ لاستحقاقها عنده الثَّواب في كلِّ وقت من الأوقات المستقبلة غير المتناهية"[2].

علَّة إسناد المضاعفة إلى الحسنة:

الحسنات سبُلٌ تحصُّل الخيرات ثوابًا وأجرًا

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾، أي: يُضاعفُ ثوابَها، وجعل ذلك مضاعفةً للحسَنةِ نفسها؛ تنبيهًا على كمال الاتِّصالِ بين الحَسَنة، وثوابها كأنَّهما شيءٌ واحد، وذلك بوصفها سبيلَ تحصُّله[3].

فائدة التَّعبير بالظَّرف (لدن) دون (عند):

نسبة الهباتِ إليه تعالى تعظيمٌ لشأنها، وتشريفٌ للموهوب

(لدن) ظرفٌ بمعنى: (عند) إلَّا أنَّ (لدن) أكثر تمكينًا من (عند)، وأقرب مكانًا، وأخصُّ منه، يقول الرَّجل: عندي مالٌ؛ إذا كان ماله ببلد آخر، ولا يقال: لديَّ مالٌ، ولا لدنِّي، إلَّا ما كان حاضرًا، وتقول: لي عند فلان مال، أي: في ذمَّته، ولا يقال ذلك في (لدن)، فإنَّ (عند) تقع على المكان وغيره[4]، و" فائدة قوله: ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾ أنَّ

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/75.
(2) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/511.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/83، والطيبي، فتوح الغيب: 4/543.

كلَّ ما أريد تعظيمه ينسب إلى الله، فيقال: (مِنْ عِنْدِ الله)، و(مِنْ لَدُنْهُ)، و(له)، و(بيت الله)، و(نَاقَةُ الله)، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝﴾"[1]، وفي الجملة تشريفٌ لمن يوهبُ هذا الأجر بوصفه من عند الله تعالى، ولذلك وصفه بالعِظَم، وذكر الرَّاغب أنَّ "وصْفَ الأجر بالعظيم اعتبارٌ بالأجور الدُّنيويَّة"[2].

توجيه المجاز في لفظ (الأجر):

الإثابة بالأجر تفضُّلٌ من الله تعالى على عباده

"سمَّاه ﴿أَجْرًا﴾؛ لأنَّه تابع للأجر لا يثبت إلَّا بثباته""[3]، " أي: هو مجاز عن التَّفضُّل؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ ومضاعفة الحسنة هي الأجر؛ لأنَّها جزاء الحسنة، وقال بعده: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا﴾، فوجب حمله على معنى زائد على الأجر، وليس ذلك إلَّا التَّفضُّل... وتسمية التَّفضُّل بالأجر تسمية للشَّيء باسم مجاوره"[4].

وجه التَّفريق بين مضاعفة الحسنات، وإتيان الأجر من لدنه:

من فضله تعالى الجمعُ في الثَّواب بين السَّعادة الجسمانيَّة، والسعادة الروحانيَّة

ذهب الرَّازيُّ أنَّ ثمَّة فرقًا بين الإثابتين، تحريره: "أنَّ ذلك التَّضعيف يكون من جنس ذلك الثَّواب، وأمَّا هذا الأجر العظيم؛ فلا يكون من جنس ذلك الثَّواب، والظَّاهر أنَّ ذلك التَّضعيف يكون من جنس اللَّذات الموعد بها في الجنَّة، وأمَّا هذا الأجر العظيم الَّذي يؤتيه من لدنه، فهو اللَّذة الحاصلة عند الرُّؤية، وعند الاستغراق في المحبَّة والمعرفة، وإنَّما خصَّ هذا النَّوع بقوله: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾؛ لأنَّ هذا النَّوع من الغبطة والسَّعادة والبهجة والكمال، لا ينال بالأعمال الجسمانيَّة، بل إنَّما ينال بما يودع الله في جوهر النَّفس القدسيَّة من الإشراق والصَّفاء والنُّور، وبالجملة فذلك

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1243.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1243.
(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/512.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/543 - 544.

التَّضعيف إشارة إلى السَّعادة الجسمانيَّة، وهذا الأجر العظيم إشارة إلى السَّعادة الروحانيَّة"[1].

بلاغةُ الاِسْتِفْهامِ في الآية:

التعبير بالاستفهام لتَهْويلِ حالِ الكافِرينَ يَوْمَ القيامَةِ وتَوْبيخِهِمْ وتَقْريعِ قُلوبِهِمْ

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

السُّؤالُ بِـ (كَيْفَ) في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ عَنِ الحالِ الْمُتَوَقَّعَةِ في ذَلِكَ المَوْقِفِ الْعَظيمِ، وهَذِهِ الْحالَةُ الَّتي دَلَّ عَلَيْها الاِسْتِفْهامُ الْمُسْتَعْمَلُ هُنا في التَّعْجيبِ، وهوَ يُؤْذِنُ بِحالَةٍ مَهولَةٍ لِلْمُشْرِكينَ تُنادي عَلَى حَيْرَتِهِمْ ومُحاوَلَتِهِم التَّمَلُّصَ مِنَ الْعِقابِ بِسُلوكِ طَريقِ إِنْكارِ أَنْ يَكونوا أُنْذِروا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مَجيءُ شَهيدٍ عَلَيْهِمْ، ولِذَلِكَ حُذِفَ الْمُبْتَدَأُ الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ، وقُدِّرَ بِنَحْوِ: كَيْفَ أولَئِكَ، أَوْ كَيْفَ الْمَشْهَدُ؟ لِأَنَّ في الْكَلامِ دَليلًا عَلَى ما حُذِفَ، ولا يُقَدَّرُ بِكَيْفَ حالُهُمْ؟ خاصَّةً؛ إِذْ هيَ أَحْوالٌ كَثيرَةٌ، ومَهْما اتَّسَعَ الْخَيالُ؛ فَلا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ ما هُمْ عَلَيْهِ؛ لِذا، فَهيَ تَحْمِلُ مَعْنَى الدَّهْشَةِ والتَّعَجُّبِ والتَّهْويلِ الْمُصاحِبِ لِهَذا الْمَوْقِفِ العَظيمِ[2].

والقُرْآنُ يُخاطِبُ الْعَرَبَ بِما اعْتادَتْهُ في لُغَتِها، فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَقولونَ في الشَّيْءِ الَّذي يَتَوَقَّعونَهُ: كَيْفَ بِكَ؛ إذا كانَ كَذا وكَذا، وإذا فَعَلَ فُلانٌ كَذا، وإذا جاءَ وقْتُ كَذا؟ لِيُثيرَ هَذا السُّؤالُ صوَرًا كَثيرَةً واحْتِمالاتٍ شَتَّى، فَكَيْفَ هُنا: لَفْظُها لَفْظُ الاِسْتِفْهامِ، ومَعْناها: مَعْنَى التَّوْبيخِ والتَّقْريعِ[3].

سِرُّ اسْتِعْمالِ ضَميرِ التَّكَلُّمِ لِلْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ:

التَّعْبيرُ بِضَميرِ الْمُتَكَلِّمِ في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/83.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/57.
(3) الزَّجاجُ، مَعاني القُرْآنِ وإعْرابُهُ، تح: عَبْدُ الجَليلِ شَلَبي: 2/53، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/644.

بَـيـانُ عَـظَـمَـةِ اللهِ الَّتي تَتَجلَّى خُـصـوصًـا في مَوْقِفِ الحَشْرِ

بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ لِلتَّعْظيم، وهَذا الْغَرَضُ كَثيرًا ما يُصاحِبُ نونَ الْعَظَمَةِ الَّتي تَرِدُ في حَقِّ اللهِ ﷻ في الْقُرْآنِ الْكَريم، خُصوصًا في هَذا الْمَوْقِفِ الْعَظيم في ساحَةِ الْعَرْضِ الْكُبْرَى، فَكُلُّ أُمَّةٍ حاضِرَةٌ، وعَلَى كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدٌ بِأَعْمالِها، وكَيْفَ يَكون ذَلِكَ الْحُكْمُ الْعَظيمُ الَّذي جَمَعَ أَنَّ مَنْ حَكَمَ بِهِ كامِلُ العِلْمِ، كامِلُ الْعَدْلِ، كامِلُ الْحِكْمَةِ، بِشَهادَةِ أَزْكَى الخَلْقِ، وهُمُ الرُّسُلُ، عَلَى أُمَمِهِمْ مَعَ إِقْرارِ الْمَحْكومِ عَلَيْهِ؟ فَهَذا - واللهِ - الْحُكْمُ الَّذي هوَ أَعْظَمُ الأَحْكامِ وأَعْدَلُها[1].

ثُمَّ يَجيءُ الْمَلِكُ الْواحِدُ الْأَحَدُ بِرَسولِنا الْحَبيبِ الرَّؤوفِ الرَّحيمِ ﷺ شاهِدًا عَلَى الْجَميعِ، فَأَيُّ مَشْهَدٍ هَذا؟ وأَيُّ تَكْريمٍ لِلْخَليلِ الْمُصْطَفَى - صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ - ولِذا دَمَعَتْ عَيْناهُ الشَّريفَتانِ عِنْدَما تُلِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآياتُ[2]، وَمِمَّا زادَ ضَميرَ الْعَظَمَةِ هَيْبَةً لَفْظُ الاسْتِفْهامِ الَّذي قَدْ تَصَدَّرَتِ الْآيَةُ بِهِ ﴿فَكَيْفَ﴾ الَّذي يوحي بِالتَّعَجُّبِ والرَّهْبَةِ.

عِلَّة تكرار لفظ ﴿جِئْنَا﴾:

في الـتَّـكـرار تـشـريـف لـمـقـام الـنَّـبـيِّ بـاخـتـصـاصـه بمجيءٍ خاصٍّ

كرَّر لفظ ﴿جِئْنَا﴾ في قوله تعالى في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ مَرَّةً ثانيَةً مَعَ نونِ الْعَظَمَةِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى اخْتِصاصِ الْمُسْنَدِ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَكانَ ضَميرُ الْعَظَمَةِ بِذَلِكَ خَيْرَ ما يُمَثِّلُ هَذا الْمَشْهَدَ النَّاطِقَ بِالهَيْبَةِ الَّتي مَلَأَتْ صَدْرَ الرَّسولِ ﷺ حَتَّى فاضَتْ عَيْناهُ حينَما تُلِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآياتُ.

دَلالَةُ تَقْديمِ المَعْمولاتِ:

تَقْديمُ الْمَعْمولاتِ بَعْضِها عَلَى بَعْضٍ كَثيرٌ جِدًّا في هذه السُّورَةِ، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ في هَذا الْمَقْطَعِ مِنَ الْآيَةِ نَرى الْجارَّ والْمَجْرورَ ﴿بِكَ﴾، وكَذا ﴿عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾

(1) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 179.
(2) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/55.

قُدِّمَ عَلَى كَلِمَةِ ﴿شَهِيدًا﴾ الْواقِعَةِ حالًا، وذَلِكَ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِ هَذا الْمُقَدَّمِ بِالحَدَثِ، وكَذا لِلَفْتِ الانْتِباهِ إلَيْهِ وحَصْرِ الاهْتِمامِ بِهِ.

الاهْتِمامُ بِشَأْنِ النَّبيِّ ﷺ وتَعْظيمُ قَدْرِهِ ومَنْزِلَتِهِ وتَشْريفُ أُمَّتِهِ

بلاغة الإضْمارِ في مقامِ الإظْهارِ:

الإضْمارُ في ﴿بِكَ﴾ مقامَ الْإظْهارِ في قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ هوَ مِنْ بابِ ذِكْرِ الْخاصِّ بَعْدَ الْعامِّ عَلَى سَبيلِ الْإطْنابِ، فَخَصَّهُ ﷺ بِمَجيءٍ لَيْسَ كَمِثْلِهِ مَجيءٌ؛ تَنْويهًا بِمَكانَتِهِ وشَرَفِهِ ونَفْعِهِ لِكُلِّ الْأُمَمِ، والذي جاءَ بَعْدَ السُّؤالِ عَنْ حالِ النَّاسِ، إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ؛ فالنَّاسُ بَيْنَ مُسْتَبْشِرٍ ومُتَحَسِّرٍ، وعلى هذا يَكونُ الإضْمارُ في ﴿بِكَ﴾ واقِعًا مَوْقِعَ الاسْمِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى هَذا أَنْ يَكونَ الكَلامُ مَسوقًا لِجَميعِ الأُمَّةِ، فَيَقْتَضي أَنْ يُقالَ: وجِئْنا بِالرَّسولِ عَلَيْهِمْ شَهيدًا، فَعَدَلَ إلَى الخِطابِ تَشْريفًا لِلرَّسولِ ﷺ بِعِزِّ الحُضورِ والإقْبالِ عَلَيْهِ[1]، وكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْمُؤَثِّراتِ النَّفْسِيَّةِ - في تَقْديمِ الْمَعْمولاتِ والإضْمارِ مَوْقِعَ الْإظْهارِ - داعَبَتْ خَواطِرَ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى أَوْصَلَتْهُ إلَى الْبُكاءِ.

في الإضْمارِ شُمولٌ لِلخِطابِ لِكُلِّ الْمُخالِفينَ وتَصْويرُهُمْ بِصورَةِ الْمُشاهِدِ الْمُعايِنِ

سِرُّ إضْمارِ مَنْ تَعودُ إلَيْهِ الإشارَةُ:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، إشارَةٌ إلَى الَّذينَ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ لِحُضورِهِمْ في ذِهْنِ السَّامِعِ عِنْدَ سَماعِهِ اسْمَ الإشارَةِ، وأَصْلُ الإشارَةِ يَكونُ إلَى مُشاهَدٍ في الوُجودِ أَوْ مُنَزَّلٍ مَنْزِلَتَهُ، وقَدِ اصْطَلَحَ القُرْآنُ عَلَى إطْلاقِ إشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُرادًا بِها الْمُشْرِكونَ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ الإشارَةُ إلَى ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، وهُمُ الْمُشْرِكونَ والْمُنافِقونَ؛ لِأَنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِهِمْ يَجْعَلُهُمْ كالحاضِرينَ، فَيُشارُ إلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لِكَثْرَةِ تَوْبيخِهِمْ ومُجادَلَتِهِمْ صاروا كالْمُعَيَّنينَ عِنْدَ الْمُسْلِمينَ[2]، وفي التَّعبير عنهم

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/56.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/58.

باسم الإشارة الدَّالِّ على القرب دلالة قدرة اللّه على سوقهم جميعًا، والإتيان بهم بين يدي رسول اللّه ﷺ وقد كانوا يظنُّون أنَّهم بعيدون عن العذاب؛ لعدم إيمانهم باليوم الآخِر.

بلاغة المتشابه اللَّفظيّ:

في تقديم اسم الإشارة تقبيحٌ لأفعالهم، وفي تأخيره بيانٌ لفضلِ النَّبيِّ ﷺ

المُلاحَظُ في هذه الآية تَقْديمُ اسْم الْإشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ عَلَى الشَّهيدِ، في حين نَجِدُ في سورَةِ النَّحْلِ تَأْخيرَهُ في قَوْلِه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: 89].

فَفي سورَةِ النَّحْلِ قُدِّمَتْ كَلِمَةُ ﴿شَهِيدًا﴾؛ لِبَيانِ فَضْلِ النَّبيِّ ﷺ وعَظَمَتِه بِغَضِّ النَّظَرِ مَن هُمُ الْمَشْهودُ عَلَيْهِمْ، فالآية في مقام تشريف النَّبيِّ ﷺ ولذلك أردفها - في الآية نفسها - بجملة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أمَّا هذه الآية: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ فالكلام فيها على الكافرين، فناسب تقديمُ الْمَشْهودِ عَلَيْهِمْ؛ لِبَيانِ مَدَى جُرْمِهِمْ، وقُبْحِ فِعالِهِمْ حَيْثُ أَشْرَكوا، وغَيَّروا، وحَرَّفوا[1].

فائدة التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

في التَّعبير بالعلِّيَّة تهديدٌ للكافرين بكون الشَّهادة عليهم

"ذكر متعلَّق ﴿شَهِيدًا﴾ الثَّاني مجرورًا بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ هو لتهديد الكافرين بأنَّ الشَّهادة تكون عليهم؛ لأنَّهم المقصود من اسم الإشارة"[2]، أو"كانت التَّعدية بـ ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارة إلى معنى المحافظة على أصول الشَّرائع السَّابقة لاشتمال القرآن الكريم عليها، ونشرها خالصة سائغة واضحة بيِّنة للأجيال"[3].

بلاغة الإيجاز بالحَذْفِ في المطلع:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾: في لفظ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قوله:

(1) سامي القَدّومي، التَّفسير البياني لما في سورة النَّحل من دقائق المعاني: 179.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/58.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1687.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَنْوينُ عِوَضٍ عن جملةٍ؛ إذ حُذِفَتِ الجُمْلَةُ السَّابِقَةُ، وعُوِّضَ عَنْها هَذا التَّنْوينُ، والتَّقْديرُ: يَوْمَ إذْ جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ، وجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهيدًا؛ يَوَدُّ الَّذينَ كَفَروا، وعَصَوُا الرَّسولَ"[1].

في الحذف بَيانٌ لِشِدَّةِ حالِ المُشارِ إلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ، وفَظاعَتِهم

بلاغة الفصل في الآية:

الجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ؛ [2] لِبَيانِ حالِهِمُ الَّتي أُشيرَ إلَى شِدَّتِها وفَظاعَتِها بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَساءَلُ عَن هذه الحالَةِ المُبْهَمَةِ، ويَطْلُبُ بَيانَها، فَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُبَيِّنَةً لِبَعْضِ تِلْكَ الحالَةِ العَجيبَةِ، وهوَ حالُ الَّذينَ كَفَروا حينَ يَرَوْنَ بَوارِقَ الشَّرِّ: مِنْ شَهادَةِ شُهَداءِ الأُمَمِ عَلَى مُؤْمِنِيهِمْ وكافِرِهِمْ، ويوقِنونَ بِأَنَّ المَشْهودَ عَلَيْهِمْ بِالكُفْرِ مَأْخوذونَ إلَى العَذابِ، فَيَنالُهُمْ مِنَ الخَوْفِ ما يَوَدُّونَ مِنْهُ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ[3].

وجْهُ الفصل بيانُ حالِ الكافرين القاسية في هذا المشهد

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

التَّعْبيرُ عَنِ الذين كفروا بِالمَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾، بَعْدَما أشارَ إلَيْهِمْ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لِذَمِّهِمْ والإشْعارِ بِعِلَّةِ ما اعْتَراهُمْ مِنَ الحالِ الفَظيعَةِ والأَمْرِ الهائِلِ وما سَيَحُلُّ بِهِم مِنَ الخِزْيِ والفَضيحَةِ والعَذابِ[4].

في التَّعبير عنهم بالموصول ذمٌّ لهم، ومزيدُ تقبيحٍ لأفعالهم

بلاغة الالتفاتِ في الآية:

فائدةُ الالتفاتِ المَقْصودِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى الغَيْبَةِ بَعْدَ المواجَهَةِ بِالخِطابِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ في الآيَةِ

أورد الاسمَ الظَّاهِرَ بَعْدَ الإضْمارِ تَشْريفًا للرَّسولِ ﷺ وللتَّهْويلِ مِنْ أمرِ تكذيبِه وعِصيانِهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/644.

(2) هَذا على القَوْلِ بِأَنَّ الفاءَ لِلتَّفْريعِ، ويُمْكِنُ أَنْ تَكونَ هي الفاءَ الفَصيحَةَ، وتَدُلُّ عَلَى شَرْطٍ مُقَدَّرٍ نَشَأَ عَنِ الكَلامِ السابِقِ، والتَّقْديرُ: إذا أَيْقَنْتَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ حالُ كُلِّ أولَئِكَ، إذا جاءَ الشُّهَداءُ، وظَهَرَ موجَبُ الشَّهادَةِ عَلَى العَمَلِ الصّالِحِ وعَلى العَمَلِ السيِّئِ، وعَلَى هَذا، فَلَيْسَ ضَميرُ (بك): إضْمارًا في مَقامِ الإظْهارِ، ينظر: ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/56.

(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/58.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/698، وطنطاوي، التَّفْسيرُ الوَسيط: 3/154.

السَّابِقَة: إيرادُ ذِكْرِهِ ﷺ بِعُنْوانِ الرِّسالَةِ تَشْريفًا لَهُ وزيادَةً في تَقْبيحِ حالِ مُكَذِّبيهِ، فَإنَّ حَقَّ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ، ويُطاعَ، لا أَنْ يَكْفُرَ بِهِ ويُعْصى[1]، فَتَسْميَتُهُ ﷺ بِهَذا الاِسْمِ تَعْليلٌ كافٍ لِوُجوبِ طاعَتِهِ ولِعِظَمِ جُرْمِ مَن عَصاهُ، وفيهِ تَهْويلٌ لِأَمْرِ عِصْيانِهِ[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

عـلّـة الـكـفـر عصيان الرَّسول ﷺ وعـــدم طاعته

في الإطْنابِ بِذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ في قَوْلِهِ: ﴿كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ دليلٌ على تَشْريفِ الرَّسولِ والتَّنْويهِ بالرِّسالَةِ الَّتي هيَ أَشْرَفُ ما تَحَمَّلَها الإنْسانُ مِنَ اللّه تَعالَى؛ إذْ هيَ سَبَبُ السَّعادَةِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّة؛ لِأَنَّ كُفْرَهُمْ يَدْخُلُ فيهِ عِصْيانُهُمْ لَهُ ﷺ، فَلو أَطاعوهُ؛ ما كَفَرُوا، ولَكِنَّهُ ذَكَرَ الخاصَّ: وهوَ عِصْيانُهُمْ لِلرَّسولِ، بَعْدَ العامِّ: وهوَ كُفْرُهُمْ؛ تَشْريفًا لَهُ ﷺ وكَأَنَّ عِصْيانَهُمْ لَهُ يُعادِلُ كُلَّ كُفْرِهِمْ؛ لِبَيانِ عِظَمِ مَكانَتِهِ وخَطَرِ مُخالَفَتِهِ.

فـــي الـعـطـف بـيـــانٌ لـعـدم المحاسبة على الكفر حسبُ، بـل عـلى جميع مـشـمـولاتـه ومنه عصيانهم الرَّسول

وَمِمَّا يَدُلُّ على خَطَرِ العِصْيانِ عَطْفُ جُمْلَةِ: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾، على جُمْلَةِ صِلَةِ المَوْصولِ: ﴿كَفَرُواْ﴾، بِطَريقِ الْوَصْلِ بِجامِعِ كَوْنِهِما خَبَريَّتَيْنِ، وفِعْلاهُما ماضيانِ، وأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ الْجامِعُ المَعْنَويُّ، حَيْثُ يُبَيِّنُ الْحَقُّ - ﷻ - دِقَّةَ حِسابِ هَؤُلاءِ الْكافِرينَ، فَلا يُحاسبونَ عَلَى كُفْرِهِمْ فَقَطْ، بَلْ حَتَّى عَلَى فُروعِهِ، وأَهَمُّها عِصْيانُهُمْ لِلرَّسولِ ﷺ فَهوَ كُفْرٌ أَوْ نَوْعٌ مِنَ الإثْمِ يُعادِلُ الْكُفْرَ؛ لِهَذا عُطِفَتْ جُمْلَةُ ﴿وَعَصَوُاْ﴾ عَلَى جُمْلَةِ ﴿كَفَرُواْ﴾، وقَدْ حَسَّنَ الْعَطْفَ أَنَّهُما مِنْ قَبيلِ الإخْبارِ مِنَ اللّه[3] ﷻ.

دَلالَةُ الكِنايَةِ عَنِ النِّسْبَةِ في الآية:

تَصِفُ الآيَةُ الْكَريمَةُ: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ

(1) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/644 - 645.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/698، والآلوسي، روح المعاني: 3/34.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/645، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/283.

حَدِيثًا﴾ الْأَحوالَ النَّفْسيَّةَ لِطُغاةِ الدُّنْيا وعُصاتِها يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ، فَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كانوا تُرابًا مِثْلَ الْأَرْضِ، أَوْ لَوْ دُسُّوا فيها، ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ عَلَى سَطْحِها، حَتَّى تَكونَ مُسْتَوِيَةً تَمامًا بِهِمْ، فَيَخْتَفي أَثَرُهُمْ، ونِسْبَةُ أُمْنِيَتِهِمْ في التَّسْوِيَةِ بِالأَرْضِ نِسْبَةٌ كنائِيَّةٌ؛ لِأَنَّ ما يَهُمُّهُمْ هوَ تَسْوِيَةُ أَجْسادِهِمْ بِها، كَما جاءَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: 40]، فَسَلَكَ الْأُسْلوبُ طَريقَةَ الْكِنايَةِ عَنْ صَيْرورَتِهِمْ تُرابًا بِالكِنايَةِ الْمَطْلوبِ بِها نِسْبَةٌ، كَقَوْلِهِمْ: الْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ[1]، وَمِمَّا يَزيدُ هَذِهِ الكِنايَةَ وُضوحًا مَجيءُ ضَميرِ الْغائِبِ في ﴿بِهِمُ﴾ الَّذي يُشْعِرُ بِعُمْقِ صِلَةِ هَؤُلاءِ النَّادِمينَ بِتَسْوِيَةِ الْأَرْضِ، حَتَّى شاعَ مِنْهُ مَعْنَى: الْحَسْرَةِ والأَلَمِ والخُسْرانِ والنَّدَمِ.

في الكناية بيانٌ لشدَّة خَوْفِ الكافِرينَ وحَسْرَتِهِمْ ونَدَمِهم على التَّفريطِ في الإيمانِ

توجيه القراءات في ﴿تُسَوَّىٰ﴾:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ بضمِّ التَّاء وتخفيف السِّين مبنيًّا للمفعول، وهو مضارع سوَّى، وقرأ نافع، وابن عامر: بفتح التَّاء وتشديد السِّين، وتشديد الشين: ﴿تَسَّوَّىٰ﴾ وأصله: تتسوَّى، فأدغمتِ التَّاء في السِّين، وهو مضارع تسوَّى، وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿تَسَوَّىٰ﴾ بفتح التَّاء وتخفيف السِّين، وذلك على حذف التَّاء؛ إذ أصله: تتسوَّى، وهو مضارع تسوَّى، فعلى قراءة من قرأ ﴿تَسَوَّىٰ﴾، و﴿تَسَوَّىٰ﴾ فتكون الأرض فاعلة، أي: يتمنَّون لو تنشقُّ الأرضُ، ويكونون فيها، وتنسوي هي في نفسها عليهم، والباء بمعنى: على[2].

لهول ما يرونه يتمنَّون أنْ يعودوا أمواتًا وتسوَّى عليهم الأرض

أو المعنى: يتمنَّون لو تسوَّى هي معهم في أنْ يكونوا ترابًا كالبهائم، فجاء اللَّفظ على أنَّ الأرض هي المسوِّية معهم، والمعنى: إنَّما هو أنَّهم يستوون مع الأرض، وعلى قراءة من قرأ: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ مبنيًّا للمفعول،

ويحتمل تمنِّيهم أن يختلطوا بالأرض، فيكونوا مادَّة التَّسوية ترابًا، أو غيره

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/59.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/263.

فالمعنى: أنَّ اللّه يفعل ذلك على حسب المعنيين السَّابقين، وقيل: المعنى: لو دفنوا؛ فتسوَّى بهم الأرض، كما تسوَّى بالموتى، ومعنى هذا القول هو معنى القول الأوَّل، وقيل: المعنى: لو تعدَّل بهم الأرض[1]، فالتَّعبير بـ (الباء) دون (على) للدَّلالة على تمنِّيهم أن يختلطوا بالأرض، فيكونوا مادَّة التَّسوية، لا أن تسوَّى عليهم فقط؛ وذلك لهول ما يرونه من عذاب.

بلاغة التَّعبير عن الفاصلة بجملة التَّمنِّي:

تمنِّي الخفاء تسويةً بالأرض منتهى صور الحسرة والنَّدامة

عُطِفَتْ جُمْلَةُ الفاصلة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ عَلَى الْجُمْلَةِ الاسْتِئْنافيَّةِ الْأُولَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِكُلِّ ما فيها وفي صِلَةِ فاعِلِها، حَيْثُ تَمَنَّوْا أَنْ يُخْفَوْا، ولا يُظْهَروا، حَتَّى لا يُسْأَلوا، فَلا يَضْطَرُّوا إِلَى الاعْتِرافِ الموبِقِ إِلَى الْكِتْمانِ الْمُهْلِكِ[2]، فالْمُناسَبَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتي بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ: الاتِّحادُ في "الْخَفاءِ"، خَفاؤُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْأَجْسادُ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾، وخَفاؤُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْكَلامُ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ومن حُسْنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ أَنَّ كِلْتَيْهِما مِنْ قَبيلِ التَّمَنِّي.

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ

لا يَكادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقونَ بَيْنَ الْإيتاءِ والإعْطاءِ، لَكِنْ نَجِدُ في الاسْتِعْمالِ الْقُرْآنيِّ بَعْضَ الْفُروقِ الدَّقيقَةِ الَّتي توحي بِبَلاغَةِ الْقُرْآنِ وعَظَمَتِهِ، وذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإيتاءَ أَقْوَى مِنَ الْإعْطاءِ في إِثْباتِ مَفْعولِهِ؛ لِأَنَّ الْإعْطاءَ، لَهُ فِعْلٌ مُطاوِعٌ، تَقولُ: أَعْطاني، فَعَطوتُ، ولا يُقالُ في الْإيتاءِ: آتاني، فَأَتَيْتُ، وإِنَّما يُقال: آتاني، فَأَخَذْتُ، والفِعْلُ الَّذي لَهُ فِعْلٌ مُطاوِعٌ أَضْعَفُ في إِثْباتِ مَفْعولِهِ مِنَ الَّذي لا مُطاوِعَ له[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/263.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/60.
(3) السُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/367 - 368، والكَفَويُّ، الكُلِّيّاتُ، ص: 212.

فالإيتاءُ أَقوى مِنَ الإعْطاءِ، قالَ تَعالَى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيْءٌ عَظيمٌ لا يُعْطاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قوَّةٌ، وكَذا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظيمٌ أَيْضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لِعِظَمِ القُرْآنِ وشَأْنِه[1].

وَمِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإيتاء فيهِ مَعْنَى: الْوُجوبِ والالتزام، أَمَّا الْعَطاءُ؛ فَفيهِ مَعْنَى: التَّفَضُّلِ والإكْرام، فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَد اللهُ المُؤْمِنينَ بِدُخولِ الْجَنَّةِ؛ قالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: 39]، ومِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ العَطاءَ يَكونُ في الْأَشْياءِ الْمادِّيَّةِ، ويُفيدُ التَّكْرارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - كَثيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]، أَيْ: سَيَكونُ عَطاءُ اللهِ لَكَ مُكَرَّرًا، حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضا[2].

فـي الإيـتـاءِ: وُجوبٌ والتِزام، وفي الإعْـطـاءِ: تَفَضُّلٌ وإكْرام

أَمَّا الإيتاء؛ فَفي الأَشْياءِ المادِّيَّةِ والمَعْنويَّةِ، قال سُبْحانَهُ: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 20][3].

وَمِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإعْطاءَ دَليلُ التَّمَلُّكِ دونَ الْإيتاء[4]، فالإيتاءُ: يَشْمَلُهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْليكًا، ولَكِنَّ الْعَطاءَ تَمْليكٌ، والإيتاءُ: لَيْسَ بِالضَّرورَةِ تَمْليكًا؛ لِأَنَّ الْإعْطاءَ: هوَ إيصالُ الشَّيْءِ إلَى الْآخِذِ لَهُ، وكَثُرَ اسْتِعْمالُ الْإعْطاءِ، حَتَّى صارَ لا يُطْلَقُ إلَّا عَلَى التَّمْليكِ، فَيُقال: أَعْطاهُ مالاً؛ إذا مَلَّكَهُ إيَّاهُ.

الإعْـطـاءُ دَليلُ التَّمَلُّكِ

ومن هنا: فاختيار لفظ الإيتاء المتضمِّن معنيي: القوّة، والوجوب

(1) السُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/367، والكفوي، الكُلِّيّاتُ، ص: 212.
(2) الكفوي، الكُلِّيّاتُ، ص: 212، والسُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/367.
(3) صَلاح لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعبير في القُرْآنِ الكَريم، ص: 71 - 77.
(4) الكفوي، الكُلِّيّات: 1/360، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يناسب سياق الآية الدَّالِّ على قوَّة الأجر الممنوح، ووجوبه لمستحقِّيه، والالتزام بذلك، ويرسِّخه لفظا: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، و﴿عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ كلَّ عطايا ربِّنا عظيمة متحقِّقة الوقوع.

(لَدُنْهُ)، و(عِنْدَهُ)، و(لَدَيْهِ):

(عِنْدَ) لِلْحُضورِ الزَّمانيِّ والمكانيِّ، وهـــيَ أَوْسَـــعُ الظُّروفِ

عِنْد: اسْمٌ لِمَكانِ الحُضورِ الحسِّيِّ، نَحْو: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النَّمْل: 40] والمَعْنَويِّ، نَحْو: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النَّمْل: 43]، وتَأْتي أَيْضًا لِزَمانِهِ، نَحْوُ: جِئْتُكَ عِنْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ، ولِلْقُرْبِ كَذلِكَ، نَحْو: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النَّجْم: 15] ولا تَقَعُ إلَّا ظَرْفًا أَوْ مَجْرورَةً بِمِنْ، وهي أَوْسَعُ الظُّروفِ.

وَتُعاقِبُ (عِنْدَ) كَلِمَةُ (لَدُنْ)؛ إذا كانَ المَحَلُّ مَحَلَّ ابْتِداءِ غايَةٍ، نَحْوُ: جِئْتُ مِنْ لَدُنْهُ، وقَدِ اجْتَمَعَتا في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكَهْف: 65].

وَتَفْتَرِقُ (لَدُنْ) عَنْ (عِنْدَ) مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلًا: إذا كانَ المَحَلُّ لَيْسَ مَحَلَّ ابْتِداءِ غايَةٍ؛ فَلا يَصِحُّ أَنْ يُقالَ: (جَلَسْتُ لَدُنْهُ)؛ لِعَدَمِ مَعْنَى الابْتِداءِ هُنا.

ثانيًا: أَنَّ (لَدُنْ) مَبْنِيَّةٌ عَلَى السُّكونِ في لُغَةِ الأَكْثَرينَ.

ثالثًا: أَنَّ (لَدُنْ) لا تَقَعُ إلَّا فَضْلَةً، يَعْني: لا تَقَعُ عُمْدَةً، فَلا يُقالُ: (السَّفَرُ مِنْ لَدُنْ زَيْدٍ)، بِخِلافِ (عِنْد)؛ فَإنَّها تَقَعُ عُمْدَةً، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق: 04][1].

(لَدُنْ) لِلْمُلاصِقَةِ وشِدَّةِ الِاقْتِرانِ، وهيَ أَخَصُّ مِنْ (عِنْدَ)

خامِسًا: لَدُنْ تُفيد المُلاصَقَةَ وشِدَّةَ الاقْتِرانِ؛ لِذا تَرِدُ في القُرْآنِ مُقْتَرِنَةً كَثيرًا بِالدُّعاءِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آلُ عِمْرانَ: 8]، وقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ

(1) ابْنُ هِشام، مُغْني اللَّبيب، ص: 206 - 209، وخالِدُ الأَزْهَريُّ، شَرْحُ التَّصْريحِ على التَّوْضيح: 1/714، والكَفَويُّ، الكُلِّيَّاتُ، ص: 633، 634.

إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آلُ عِمْرانَ: 38] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مَرْيَمُ: 5].

فَبِهَذِهِ الاِعْتِباراتِ تَكونُ (لَدُنْ) أَخَصَّ مِنْ (عِنْدَ).

فَيَتَحَصَّلُ مِمَّا سَبَقَ: أَنَّ (لَدُنْ) أَبْلَغُ مِنْ (عِنْدَ) وأَخَصُّ، و(لَدُنْ) كَذلِكَ أَقْوى مِنْ (عِنْدَ) في الدَّلالَةِ على القُرْبِ، ولذلك اختيرَ لفظًا في الآية.

(لَدَى) أَمْكَنُ مِنْ (عِنْد)

أَمَّا (لَدَى)؛ فَهيَ مِثْلُ (عِنْد) مُطْلَقًا إلَّا أَنَّ جَرَّها مُمْتَنِعٌ، بِخِلافِ جَرِّ (عِنْد)، فـ (عِنْد) تَدْخُلُ عَلَيْها (مِنْ)، فَتَجُرُّها، وأَمَّا (لَدَى)؛ فَلا، وأَيْضًا (عِنْد) أَمْكَنُ مِنْ (لَدَى)، مِنْ وجْهَيْنِ:

أَوَّلًا: أَنَّها تَكونُ ظَرْفًا لِلْأَعْيانِ والمَعاني، تَقولُ: (هَذا الْقَوْلُ عِنْدي صَوابٌ)، ويَمْتَنِعُ ذَلِكَ في (لَدَى)، فَلا يُقالُ: (هَذا الْقَوْلُ لَدَيَّ صَحيحٌ)، وإنَّما يُقال: عِنْدي.

ثانيًا: أَنَّهُ لا يُشْتَرَطُ الحُضورُ في (عِنْد)، فَتَقول: (عِنْدي مالٌ)؛ وإنْ كانَ غائِبًا عَنْكَ، بِخِلافِ (لَدَى)، فَإن قُلْتَ: لَدَيَّ مالٌ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ حاضِرًا في جَيْبِكَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، قَريبًا مِنْكَ[1].

المجيء والإتْيان:

المَجيءُ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ

الْإِتْيانُ: مَجيءٌ بِسُهولَةٍ، وهوَ بِدايَةُ المَجيءِ[2]، فَإذا اكْتَمَلَ، وبَلَغَ مَقْصَدَهُ مِنْ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ أَوْ شَخْصٍ؛ أَصْبَحَ مَجيئًا، فالمَجيءُ: هوَ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عَنْ عَوامِلِ النَّقْصِ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأَعْرافُ: 129]، فالإتيانُ: بِدايَةُ المَجيءِ زَمانيًّا أَوْ مَكانيًّا، وقَدْ لا يَتِمُّ، فَلا يَكونُ مَجيئًا، أَمَّا المَجيءُ؛ فَهوَ إتْيانٌ

(1) ابْنُ الشَّجَريِّ، أَمالي ابْنِ الشَّجَريِّ، تح: مَحْمود الطَّناحي: 1/224، والسُّيوطيُّ، الأَشْباهُ والنَّظائِر: 2/185.

(2) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ، ص: 283.

مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[1]، وبه تتكشَّف علَّة اختيار لفظ المجيء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ بوصفه وجهَ تشريفٍ للنَّبيِّ ﷺ ومن قبله الشُّهداء على الأمم قبله، لكمال المقصد منه، وبعده عن عوامل النَّقص المناسب لصفات الأنبياء والرُّسل عليهم السلام.

الشَّهيد والشَّاهِد:

الشَّهادَةُ في أَصْلِ اللُّغَةِ، مَعْناها: الحُضورُ، وفي الاصْطِلاحِ: هيَ خَبَرٌ قاطِعٌ، صادِر عَنْ عِلْمٍ حَصَلَ بِمُشاهَدَةِ بَصَرٍ، أَوْ بَصيرَةٍ[2]، وتَنْقَسِمُ مِنْ حَيْثُ الطَّرَفُ الَّذي يُؤَدِّيها قِسْمَيْنِ: شَهادَةَ شاهِدٍ وشَهادَةَ شَهيدٍ، والفَرْقُ بَيْنَهُما:

الشَّاهِدُ يَشْهَدُ انطِلاقًا مِنْ خِبْرَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والشَّهيدُ يَشْهَدُ انطِلاقًا مِنْ سَمْعِهِ ورُؤْيَتِهِ

أَنَّ شَهادَةَ الشَّاهِدِ: هيَ شَهادَةُ مَعْرِفَةٍ وخِبْرَةٍ مُكْتَسَبَةٍ، ومِثالُها قَوْلُهُ تَعالَى في قِصَّةِ يوسُفَ عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسُف: 26 - 27]، فَهَذا الَّذي شَهِدَ مِنْ أَهْلِ امْرَأَةِ الْعَزيزِ لَمْ يَشْهَدِ الْواقِعَةَ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكونَ شَهيدًا عَلَيْها، ولَكِنَّهُ شَهِدَ مِنْ واقِعِ خِبْرَتِهِ بِالأَدِلَّةِ، ومَعْرِفَتِهِ بِكَيْفِيَّةِ سَيْرِ الْأُمورِ، ومَنْطِقِيَّةِ الْأَحْداثِ بِنَتائِجِها[3]، أَمَّا شَهادَةُ الشَّهيدِ؛ فَهيَ شَهادَةٌ حُضوريَّةٌ، تَعْتَمِدُ عَلَى السَّمْعِ والبَصَرِ، ومِثالُها قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ﴾، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ [البَقَرَة: 282]، فَنُلاحِظُ هُنا: أَنَّ

(1) جبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: 1/264. وأودُّ التنبيه على أنَّ مَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ المَجيءِ والإتْيانِ في بابِ الأَسْماءِ والصِّفاتِ مِنْ مُحَقِّقي أَهْلِ السُّنَّةِ، يَجْعَلُهُما بِمَعْنى واحِدٍ، ويَسْتَدِلُّ لَهُما بِالأَدِلَّةِ نَفْسِها دونَ تَفْريقٍ، فالفَرْقُ المذكور في المتن غَيْرُ وارِدٍ في بابِ الصِّفاتِ، فَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفَجْر: 22].

(2) الراغب، المفردات: (شهد).

(3) وهَذا أَحَدُ وُجوهِ تَفْسيرِ وصْفِ الشّاهِدِ في القِصَّةِ مِنْ أَقْوالِ المُفَسِّرينَ، قال القُرْطُبيُّ لمّا ذَكَرَ تَحْديدَ هَذا الشّاهِدِ: وهو الصَّحيحُ في البابِ، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/321.

الَّذي طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى عَقْدِ الْمُدايَنَةِ والمُبايَعَةِ هوَ حاضِرُ الْعَقْدِ، فَهوَ شَهيدٌ، ولَيْسَ بِشاهِدٍ[1]، وقيلَ أَيْضًا: إنَّ الشَّاهِدَ بِمَعْنَى: الْحُدوثِ، والشَّهيدُ بِمَعْنَى: الثُّبوتِ، فَإنَّهُ إذا تَحَمَّلَ الشَّهادَةَ؛ فَهوَ شاهِدٌ بِاعْتِبارِ حُدوثِ تَحَمُّلِهِ، فَإذا ثَبَتَ تَحَمُّلُهُ لَها زَمانَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ؛ فَهوَ شَهيدٌ[2].

ويَتَحَصَّلُ مِمَّا تَقَدَّمَ: أَنَّ الَّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ انْطِلاقًا مِنْ خِبْرَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ: هوَ شاهِدٌ، ولَيْسَ بِشَهيدٍ، وأَنَّ الَّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ؛ انْطِلاقًا مِنْ سَمْعِهِ ورُؤْيَتِهِ: هوَ شَهيدٌ، ولَيْسَ بِشاهِدٍ؛ ولذلك اختيرَ لفظُ الشَّهيد في الآية لما يتضمَّنه من مبالغة في الشَّهادة بوصفها مبنيَّة على السَّمع والرُّؤية، وهو يناسب مقام رسول الله ﷺ ثبوتًا للصِّفة فيه، وقوَّة تحقُّقٍ، فضلًا عن كونه عاش بين ظهراني قومه، فسمع، وشهد كلَّ شيء بدر منهم إيمانًا أو كفرًا.

(1) الماتُريديُّ، تَأْويلاتُ أَهْلِ السُّنَّة: 2/278.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 292.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»